هل في القراء من يجهل أن الآثار المصرية القديمة ، التي خلفت لنا من الفراعنة ، والتي تملأ الآن متحف المصري بالقاهرة ، ومتاحف العالم طراً ، وتغشى أكثر مناطق ارض مصر ، والتي يحج الى رؤيتها الزوار من أقصى الأرض ومختلف الأمم ، ليست الا أحجاراً صماء ، وأشياء وأدوات جامدة ، لم يكتمل كل درجات الفن ، ويبدو عليها مسحة من الجمال ، تفيضها في نظرة فقط من تاريخها السحيق وقدم عهدها

فهل يحسب أولئك الرواد والزوار ، أفراداً وجماعات ، يتكلفون مشقة الانتقال الى أرض مصر ، ويبذلون أموالهم ، ليشاهدوا أحجاراً مرصوصة ، وأبنية من الصخر ضخمة ، ومآدبات ماضية ، قد يمكن أن يرى أمثالها في كل مكان ، أو لم يكتشفوا ذلك من أجل الفن الذي يحويه الفن الذي يحبب القوم جميعاً ، ويرهم أشد الناس حباً ، ويحشونه على الاعجاب والاحترام

لقد أشرقت الشمس على أرض مصر ، وأرسلت اليها قرون أشعتها الساطعة ملازمة صيفاً وشتاء ، ورسمت بها على الرمال ظلالاً أخاذة ساحرة ، وأسالت على سماء مصر في شروقها وغروبها ألوان الشفق الفاتنة

ولقد انساب النيل بين بطاحها ، فتكون واديه ، وأنشأ هذا البساط الأخضر البديع على جانبيه

ولقد حبا الله طبيعة مصر وجوها الهدوء والاعتدال ، والصفاء والانسجام ، مع تلك الشمس الساطعة التي لا تنقطع ولا تغيب ، والقمر المتلألئ ، الذي تطل على أراضيها تحوط سماءه الصافي الشمري ولا يحجب

ولقد استوطنت مصر السلالة البشرية من أولاد سام ، فنسلت منها ذلك العنصر النشط الجد المتحضر

فمن كل ذلك ، كان عنصر فني ، وفن رائع ، نبت من يومه فوراً ، وكان منها أثر تابع للذوق الحسي ، ومرجعه الكثير من أسباب الجمال ، فظهرت آثار كل ذلك في كل شيء ، وفوق كل حجر ، وفي كل بناء ، منذ أول عصور ما قبل التاريخ حتى آخر عهد أولئك المصريين القدماء.

عظمة مصر في فنها القديم

وحيث نبت مصر الفن منذ الانسانية الأولى ، أو منذ قدم المدنيات طراً ، لحدثت الفن فيها هو حدث نشأة المدنية الأولى ، أو حدث الحضارة والنور

واذ ثبت الآن أن جميع فنون المدنيات اقتبست من فن مصر ، واقتبست منه ، وأثرت بنورها فيما طورها عنها نقلت واقتبست ، فقد تكون الفن بمصر هو السجل الأقدم الذي يجمع أسس الفن وأصوله ودعائمه

واذ سبقت مصر الأمم جميعاً الى الفن الجليل ، وأدركت أسرار الجمال في كل شيء ، فأبرزت صور هذا الجمال في كل مسحاتها في تاريخها القديم ، فان مصر هي التي بثت في العالم الروح الفنية التي تتفجر الحس وتفهم معاني الجمال

وموضوع الفن في التاريخ المصري هو موضوع الحياة المصرية القديمة كلها في مدار الحكم الفرعوني فشكل شيء ، وكل حركة ، وكل عمل ، كان للفن فيه أثر ، وكان عظمة حية تغني ، ويحمل الناس على الاعجاب بها

وكان العالم الحديث يظن أن المصريين القدماء كانوا قوماً خشني الطباع ، مجردين من عوامل الرقة ودماثة الخلق حتى أظهرت الاستكشافات الجديدة للبعثات الأثرية المختلفة ومصلحة الآثار المصرية ، خطأ هذا الظن بما أخرجته من جوف الأرض من كنوز وتحف ، ناطقة بأبدع صور الفن وأسمى معاني الجمال ، مما سنشرحه في كلماتنا القادمة ان شاء الله

ولئن كانت مصر قد فقدت الكثير ، من سائر سلطتها الماضية ، وسلبها الدهر حريتها واستقلالها اللذين سجلهما لها التاريخ في العهود القديمة قروناً ودهوراً ، فانها لم تفقد الفن في آثارها ولم تفقد مظاهر الجمال في مخلفات قدمائها

وهذا المجد الموروث الذي نتيه به ليس هذه الصخور في محاجرها ، أو التي نقلتها السلطة والجبروت الى مواضعها وانما هو أثر الفن في تكوينهم لها ورسومهم ونقوشهم عليها

وهل عزاء مصر في هذه الأرض التي حلت الفراعنة الأمجاد وآووهم ، وشهدت العظمة والمجد في أجلى دولتها وصرعت عليها الدول المتعاقبة من فواطميين ومصريين ، فحطمت في واديها دعائم الجبروت ، وتلاشت معالم القوة والبطش لعل عزاء مصر الوحيد أنها لم تفقد الفن ولم تفقد صور الجمال في آثارها

احمد يوسف